إقناع

(قصة) محمد عبدالعليم
القاهرة .. في ٥ / ٢ / ٢٠١٢

قال الدكتور (هاشم) وهو يستند بمرفقة على مدفأة اوروبية الطراز والتي راحت ألسنة اللهب تضطرم بداخلها ومن حين لأخر تصدر صوت طرقعة الأخشاب التي تبعث في الجسد قشعريرة غير مفهومة : هل ما زلتم تصدقون كل ما تقرؤونه في كتب التاريخ وتعتبرونه من المسلّمات الغير قابلة للنقاش ؟؟ إذاً فلتستمعوا لي فما سأقوله ربما يغير قناعتكم إلى الأبد .

***

الدكتور هاشم هو مثلي الأعلى منذ أن كنت طالبًا لديه في قسم التاريخ بكلية الآداب وحتى اليوم .. لا أعتقد أن هناك من يستطع مكافئة الدكتور هاشم في علمه الغزير أو وقاره المهيب أو طيبته الصافية أو صرامته المحببة .. هو دائمًا ما يبهرني بما لديه وطوال سنين معرفتي به ما يزال يذهلني بمعارفه كأول يوم رأيته فيه واستمعت إلى شرحه الممتع .

ربما كان إعجابي الشديد به هو ما جعلني طالبًا مميزًا لديه أو ربما لإني أردت أن يلاحظني ويقربني منه هو ما جعلني أتفوق و أبرز أقراني حتى صرت أول دفعتي طوال فترة دراستي بالكلية مما رشحني لأعمل معيدًا فيها ثم أشرف بعد ذلك بأن أكون أستاذًا مساعد لمادة الدكتور هاشم .

هو أيضا لاحظني منذ البداية وعرف أنني مختلف عن الجميع لذا فقد كنت دومًا طالبه المفضل .. كنت دومًا قريبًا منه أفتش الكتب وأبحث عن أعقد مسائل التاريخ وأطرحها عليه فقط لأثير انبهاره ولكنه دومًا ما كان يبتسم بهدوء ثم بلهجته الهادئة ونبرته الواضحة يبدأ شلال من المعلومات الرائقة الصافية تنحدر من بين شفتيه .. هو باختصار أعلم أهل الأرض بالتاريخ من وجهة نظري على

الأقل .
الدكتور (هاشم السلانيكي) دومًا ما كان اسمه يثير دهشة من يسمعه لأول مرة حيث أن اسم السلانيكي غير مألوف للعامة إلا أنه دومًا ما كان بهدوئه المعهود يوضح لمن يدهش من اسمه تاريخ عائلته التي تنحدر من رشيد وجده الأكبر علي بك السلانيكي حاكم مدينة رشيد وقائد مقاومتها ضد حملة فريزر .
كانت فيلته بالمعادي قبلة للمثقفين ورجال الأدب والفن الذين يلتقون تقريبًا كل ليلة في صالونه الذي اعتبره أفضل صالون أدبي يمكن لطالب الثقافة أن ينهل منه . وبطبيعة الحال فلقد كنت ضيفًا دائمًا في صالونه الثقافيّ والذي يدهشك بتنوع مواضيعه ورغم ذلك تجد الدكتور هاشم كالفارس الذي لا يشق له غبار مهما كان موضوع النقاش .. فلو كان موضوعًا علميًا أحسست أن الدكتور هاشم لم يُخلَق إلا له .. وإن كان موضوعًا أدبيًا وجدته ناقدًا وأديبًا وشاعرًا وإن كان موضوعًا تاريخيًا فهو مجال تخصصه الذي لا يضارعه فيه أحد لذا فقد كان الدكتور هاشم دومًا هو النجم اللامع في سهراتنا في صالونه .
في الليلة الماضية اكتشفت فنًا أخر برع فيه الدكتور هاشم حتى النخاع ألا وهو فن الإقناع !!
كان موضوع الصالون موضوعًا قد يبدوا مملًا للكثيرين فقد كان مناقشة كتاب لكاتب غربي يدعى (وليام . ج . ماكولاف) وكان عنوان الكتاب (فن التحدث والإقناع) .
راح الدكتور هاشم بأسلوبه الممتع يناقش الكتاب ويشرح مضمونه وكيف أنك لو سرت على الخطوات التي يفصّلها الكاتب ستتمكن من تحسين قدراتك الخطابية ويصبح بإمكانك إقناع المستمعين لك بفكرتك أو قناعتك بسهولة ويسر .
اعترض أحد الحاضرين على كلام الدكتور هاشم معلّلا ذلك بأن الحقيقة الواضحة كافية بذاتها لإقناع كل العقول أما الأكاذيب القائمة على أوهام لا يمكنها إقناع أحد حتى ولو كان من يقولها أبرع الخطباء حتى لو كان شيشرون نفسه لما صدقه احد .
ابتسم الدكتور هاشم ابتسامته الهادئة وهو يقول : الواقع يشهد على خطأ ما تقول يا عزيزي فلا يوجد في الكون حقيقة أوضح من وجود الله عز وجل ولكنك ستجد

مليارات البشر الذين يكذبون هذه الحقيقه الناصعة .. كما أن الأكاذيب هي ما ساق دولًا كثيرة لحروب طاحنة قُتِلَ فيها الملايين فقط لبراعة زعماء هذه الأمم في اقناعهم بعدالة قضيتهم .. إن هتلر وموسوليني هما مثالٌ حي على هذا .

بهت السائل من إجابة الدكتور هاشم ولكنه ابتلع ريقه وقد أبى كبريائه الاعتراف بخطأه فقال متحديًا : ولماذا ندخل في حوارات سفسطائية لا طائل من ورائها فلتقدم لنا دليلًا عمليًا الأن على صحة ما تقول.. تفضل حاول أن تقنعنا بشيء يخالف الحقائق الأن واعدك أنّ لا أحد من الحاضرين هنا سيقتنع بما ستقوله إن كان يخالف الحقائق المعروفة مهما كانت براعتك في السرد أو مهارتك في الخطابة .

ثم أعقب قوله هذا بنظرة متحدية إلى الدكتور هاشم الذي صمت لبُرهه وهو ينظر إلى الرجل في حين تابعت عيون الحاضرين هذه المعركة النفسية وقد صار الجو الأن أكثر حماسًا و إمتاعًا وفي نفسي كنت واثقًا أن الدكتور هاشم يستطيع أن يفعل أي شيء مما جعلني متلهفًا لمعرفة كيف سيعالج هذا الموقف .

بعد هذه اللحظات والنظرات المتحدية افترّ ثغر الدكتور هاشم عن ابتسامته الهادئة المعهودة ثم قال بنبرته الصارمة : حسنًا .. سأعطيك دليلًا عمليًا .. ولكن دعوني أولًا أحذركم أن ما سأقوله لكم الأن هو محض خيال ولا يمت للحقيقة بصلة فلا تصدقوه .

اتسعت العيون في دهشة مما قاله الدكتور هاشم فهو بتحذيره هذا قد قضى على فرصته لإقناع الحاضرين بقصته مهما كانت متقنة .

كان اندهاشي أنا أيضاً يفوقهم وإن كانت ثقتي في أستاذي تجعلني أتحرق لمعرفة كيف سيواجه هذا التحدي الذي قام بزيادة درجة صعوبته بنفسه .

كان الحضور جميعًا قد تأهبوا للإستماع للدكتور هاشم بعقول قد اتخذت أهبتها لرفض كل ما سيقوله بناءً على تحذيره الواضح .

أرجع الدكتور هاشم ظهره إلى الوراء ليغوص في مقعده ثم قال بصوته الهادئ : إن ما سأحكيه لكم الليلة سيتصادم مع معارفكم وقناعتكم .. سيتصادم مع ما تظنون أنتم أنه الحقيقة المطلقة التي لا يوجد غيرها حقيقة .

ولكن من قال أن الحقيقة دومًا هي ما يعتقده الغالبية العظمى من الناس وأن ما

يعتقده الأقلية هو الخطأ ؟
ألم يكن أنبياء الله أقلية ؟؟ ألم يكن المشركين والكفار هم الأغلبية ؟؟ وبالرغم من ذلك فإننا الأن نعرف أن الحقيقة التي أمن بهاء الكفار (الأغلبية) هي محض باطل وأن حقيقة الأنبياء (الأقلية) هي الحقيقة التي لا مراء فيها .
ألم تخالِف حقيقة جاليليوا بأن الأرض تدور حقيقة الشعب الأوربي بأكمله وعلى رأسه البابا الذي قال أن الحقيقة هي أن الأرض ثابتة ؟
ثم قام من مقعده وشبّك كفيه خلف ظهره وهو يتساءل : هل تعلمون كيف هُزِمَت حملة فريزر في رشيد ؟
سرت همهمات بين الحضور في حين رد عليه المتحدي قائلًا : بالطبع كلنا يعلم .. لقد خدع أهالي رشيد رجال الحملة الإنجليزية واختبئوا في بيوتهم وتركوا لهم المدينة خالية وعندما دخل الإنجليز المدينة وجدوها خالية فانتشروا في أنحائها وهنا خرج عليهم الرجال بما لديهم من أسلحة وعُصيان وقامت النساء بإلقاء المياه المغلية على الجند من النوافذ .. كانت حركة مفاجئة أربكت الإنجليز وجعلتهم يرتدوا عن المدينة منهزمين .
صفق الدكتور هاشم بيديه برفق وهو يقول :أحسنت يا عزيزي يبدو أنك كنت تحصل على الدرجات العليا في مادة التاريخ في المدرسة .
ولكن هل معنى أن التاريخ قد ذكر لنا حدثًا وتواترت أخباره في الكتب أن هذه هي الحقيقة بالفعل ؟؟
قال الدكتور (هاشم) وهو يستند بمرفقه على المدفأة الاوروبية الطراز والتي راحت ألسنة اللهب تضطرم بداخلها ومن حين لأخر تُصدِر صوت طرقعة الأخشاب التي تبعث في الجسد قشعريرة غير مفهومة : هل ما زلتم تصدقون كل ما تقرؤونه في كُتُب التاريخ وتعتبرونها من المسلّمات الغير قابلة للنقاش ؟؟ إذًا فلتستمعوا لي فما سأقوله ربما يغير قناعتكم إلى الأبد .
تعلمون أنني أنحدر من عائلة (السلانيكي) وأن جدي الأكبر علي بك السلانيكي كان هو حاكم رشيد ابان حملة فريزر على مصر وكتُب التاريخ تذكُره كقائد شجاع ومخطط بارع استطاع أن يدحر الحملة في رشيد .

ولكن هل هذه هي الحقيقة ؟؟
الليلة سأكشف لكم سرًا تعاهدته أسرة السلانيكي على مر أكثر من قرنين من الزمان .. سرًا ينتقل من الأب إلى الابن بعد أن يُقسِم أغلظ الإيمان على كتمانه والمحافظة عليه وحمايته بحياته .
كانت العيون الأن متسمره على الدكتور هاشم والأذان مصغية إليه فقال بصوت واضح : أحقا تصدقون رواية التاريخ لما حدث في رشيد ؟؟
ألم يتساءل أحدكم يومًا ولماذا رشيد بالذات ؟؟
بدت الحيرة على الوجوه وكأنما لم يفهموا مغزى سؤال الدكتور هاشم الذي ابتسم موضحًا : في عام ألف وثمانمائة وسبع (١٨٠٧) وصلت الحملة الإنجليزية بقيادة ماكنزي فريزر إلى الأسكندرية واستطاعت احتلالها بسهولة وكان من الأوفق التقدم بالقوة نحو القاهرة لاستغلال الفرصة وعامل المفاجأة حيث أن الوالي محمد علي باشا في ذلك الوقت كان منشغلًا بمحاربة المماليك وقائدهم مراد بك وكانت الفرصة سانحة له لدخول القاهرة بأقل مجهود حيث أن محمد علي لم يكن قادرًا على الحرب في جبهتين .
ثم تقدم ليمسك بكرسيه الذي كان يجلس عليه منذ قليل ويستند عليه براحتيه وهو يتابع : ولكن على الرغم من ذلك نجد فريزر يترك هذه الفرصة الذهبية ويتجه بقواته إلى رشيد !!
ما المهم في رشيد إلى هذا الحد يجعل الإنجليز يتخذوها هدفًا ؟؟
ألم يسيطروا بالفعل على ميناء الأسكندرية أهم الموانىء المِصرية على البحر المتوسط ؟؟ ما حاجتهم إذًا لرشيد ؟
كانت عقول الجالسين الأن قد بدأت في التساؤل فعلًا وبدا لهم تساءول منطقيّ .
تابع الدكتور هاشم : دعوني أذكركم أن رشيد في هذا الزمن لم تكن مدينة بالمعنى المفهوم وإنما هي كانت أقرب ما يكون لقرية كبيرة يعمل أهلها بالصيد غالبًا وبها حامية رمزية من الجند (٧٠٠ جندي) غير قادرة على حمايتها ضد هجوم قوي منظم فما بالكم بحملة ضخمة أعِدَت لغزو مصر كلها وجُهِزَت بألاف الرجال المتمرسين والذين خاضوا عشرات المعارك وفتحوا كثير من البلدان ومجهزين

بأفضل العتاد الحربي المعروف في ذاك الوقت .
كان الأسطول الإنجليزي في ذلك الوقت هو فخر التاج البريطاني وأقوى أساطيل العالم والذي أذاق من قبل أساطيل فرنسا الويلات هنا في أبي قير أو في معركة نلسون ونابليون في طرف الغار .
كانت مدفعية الأساطيل البحرية بالإضافة لمدفعيتهم البرية تستطيع تسوية رشيد بالأرض وتمهيدها بسهوله للإنجليز إن هم أرادوا ذلك ولكنها لم تفعل .
لذلك دعوني أعيد سؤالي مرة أخرى .. لماذا رشيد ؟؟
أحقًا تصدقون الرواية التي تقول أن الأهالي ببعض الأسلحة المضحكة والنبابيت والنساء بالمياه المغلية استطاعوا هزيمة جيش متمرس حسن التدريب والتسليح ؟؟
إن جيش بونابرت المنهك بسبب طول حصار عكا والممزق بفعل الطاعون والمنهزم في حملته على الشام قد استطاع بسهولة السيطرة على ثورة القاهرة وهي المدينة الضخمة المتخمة بالبشر والرجال الأشداء .. فهل استطاعت رشيد فعل ما لم تستطع أن تفعله القاهرة ؟
هل كان جيش فريزر من السذاجة وهو يدخل شوارع رشيد فيجدها خالية ليستمر في الدخول دون أن يتجشم أحد الجند عناء اقتحام أحد البيوت ليعرف أين الناس ؟
هل صدّقتم بالفعل تلك الصورة المضحكة الكاريكاتيرية لجيش مسلح بأحدث ما توصلت إليه قرائح البشر يفر من النبابيت والسكاكين والمياه المغلية ؟
دعوني أكرر تساؤلي مرة أخرى .. لماذا رشيد ؟؟
إن إجابة هذا السؤال تحتاج منا العودة بالتاريخ سبع سنوات عندما كان الفرنساويين يحتلون مصر وبعثاتهم العلمية تدور في كل شبر من أراضيها تدون وترصد كل ما تراه فيها تمهيدًا لوضعه في ذلك السفر الضخم المسمى بكتاب وصف مصر .
إن الولَع الفرنسي بِمصر وَلَع غير طبيعي وتشوقهم لكل ما هو مِصري هو أحد الأعاجيب لقد كانوا يبحثون بإخلاص منقطع النظير وكأنما يبحثون عن شيء يعرفون مسبقا أنه موجود .

وفي أحد تلك البعثات الإستكشافية استطاع الضابط (بوشار) اكتشاف حجر رشيد والذي يعد من أهم الإكتشافات الأثرية في التاريخ لأنه كان المفتاح لحل رموز اللغة المصرية وفتح باب التاريخ المِصريّ المغلق .

هذا ما ذكره لنا التاريخ المعروف ..

ولكن ايًا من كتب التاريخ لم يذكر الحقيقة كاملة !!.

حقيقة ما كان مطمورًا تحت رمال رشيد والذي أثار الفزع في نفوس الفرنساويين لدرجة جعلت قائد الحملة يقبَل شروط تسليم مهينة بل ويقبل أن يرحل رجاله على متن سفن أعدائهم الإنجليز حيث أن سفنهم كانت قد دُمِرت قبل ذلك في معركة أبي قير .

ثم تساءل باهتمام : هل يعرف أحدكم من كان القائد الأخير للحملة الفرنسية ؟

قال أحد الحاضرين : بعد عودة (نابليون) إلى فرنسا تولى القيادة (كليبر) وبعد مقتله على يد سليمان الحلبي تولى القيادة الجنرال (مينو) .

ابتسم الدكتور هاشم بخبث وهو يقول : وهل تعرفون أن الجنرال مينو الذي وقّع اتفاقية الاستسلام هو نفسه كان الحاكم العسكري لرشيد ؟

ترى ما الذي رأه بوشار وفرقته وعرفه مينو جعله يفر من مصر بجنده كما لو كانت شياطين الأرض تلاحقه ؟؟

كانت السفن الإنجليزية هي التي أقلت الجنود الفرنسيين عائدة بهم إلى فرنسا وفي ليالي البحر الباردة كانوا يزجون وقتهم بشرب الخمر والتسامر في الأحاديث ورواية ما رأوه من غرائب وعجائب في مصر .

ويبدو أن أحد الضباط الفرنسيين قد باح بشيء لم يكن يجب عليه أن يبوح به بعد أن لعبت الخمر برأسه لتصل تلك المعلومة لأذُن أحد البحارة الإنجليز لتجد طريقها بدورها إلى قادته الذين يجدون في تلك المعلومة ما يستحق تجريد حملة ضخمة للوصول لذلك الشيء الذي ألقى الرعب في قلوب الفرنسين وجعلهم يخرجون من مصر منكفئون .

كان الذهول والترقب قد علا وجوه الحاضرين حتى لو أسقطت إبرة لصار دويها مثل انفجار القنابل .. كانوا يستمعون إليه بكل حواسهم وكأن على رؤوسهم الطير وقد

تدلت فكوكهم ذهولًا مما يسمعون .. نظر الدكتور هاشم إليهم وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى قائلًا : وهنا يأتي دور عائلتي .. عائلة السلانيكي والتي كان أفرادها قد عرفوا السر المحرم والذي تعاهدوا على حفظه وسرية وجوده حتى يأتي الوقت المناسب لاستخدامه .

كان جدي الأكبر علي السلانيكي هو كبير العائلة والحافظ لسرها وكان حاكم رشيد ولقد عرف بخبرته العسكرية أن المقاومة لن تجدي مع قوة بهذا الحجم والإمدادات لن تأتيهم من القاهرة في الوقت الحالي نظرًا لبعد المسافة ولانشغال الوالي بحروبه مع المماليك .. وقتها لم يجد بدًا من استخدام ذلك الشيء للدفاع عن رشيد .

أخذ نفسًا عميقًا قبل أن يقول : يكفي أن تعرفوا أن فريزر عندما عرف بما حدث للقوة التي أرسلها لاحتلال رشيد كاد قلبه يتوقف من الرعب حتى أنه لم يبد أي شروط لتسليم الأسكندرية لمحمد علي وسارع بأخذ قواته والعودة مسرعا إلى إنجلترا لا يلوي على شيء .

يومها تعاهد أهل رشيد على نسيان ما رأوه وأن يكتموا حقيقته وإلا اتُهموا بالجنون نسى أهل رشيد أو تناسوا ما حدث في ذلك اليوم وأقنعوا أنفسهم بحكاية مفادها أنهم نصبوا كمينًا لقوات فريزر داخل المدينة إلى أخر هذا الهُراء الذي تقرأونه في كتب التاريخ وتعبُر عليه عيونكم دون أن تحاولوا تفسيره أو نقده نقدًا علميًا سليمًا .

رغم نسيان أهل رشيد لتلك القصة إلا أن عائلتي ظلت تتوارث هذا السر عبر الأجيال وأصبحنا نحن حماة هذا السر والمسؤولين عن الشيء الذي ننتظر أن يحن الوقت المناسب لأستخدامه .

كانت أنفاس الحضور قد تقطعت انبهارًا بما يسمعون وقد انطبع على وجوههم نظرة ذهول قطعه ذلك المتحدي الذي قال بصوت متحشرج : وما هو هذا الـ ... شيء ؟

نظر إليه الدكتور هاشم بخبث وهو يتساءل : أي شيء تقصد ؟؟

ابتلع الرجل ريقة بصعوبة وهو يقول : الشيء الذي لا يعرف سره إلا عائلتك والذي تتوارثونه عبر الأجيال .

عاد الدكتور هاشم إلى مقعده وغاص فيه باسترخاء مستمتع قبل أن يقول .

ألم أحذركم من البداية ألا تصدقوا ما سأحكيه لكم ؟

صدمتهم عبارته كما لو كانت دلوا من المياه المثلجة قد سقط عليهم في هذا الطقس البارد فانتفضت أجسادهم قبل أن ترتفع الضحكات ثم عم الصالون تصفيق حاد والكل يضحك ويثني على الدكتور هاشم الذي سحرهم وبهرهم بقصته الخيالية تلك لدرجة الإقناع .

بعد عدة نقاشات قصيرة حول قصة الدكتور هاشم بدأ الحاضرين في القيام شاكرين للدكتور هاشم تلك التجربة الفريدة التي سيتذكرونها إلى الأبد وخرج الجميع ضاحكين مستمتعين بأحداث الليلة .

كنت أنا المتبقي مع الدكتور هاشم فقمت إليه مصافحًا وهنأته على قصته الجميلة ونجاحه المبهر في إقناع الحضور بها ثم قلت له بأدب : اعذرني يا سيدي ولكني لم أخدع مثل الباقيين ارتسمت ابتسامة على وجه الدكتور هاشم قائلا : ولم ؟

قلت له : لأنك ذكرت في بداية قصتك أن ما ستحكيه سر من اسرار عائلتك أقسمت على حمايته .. وما كنت لتفشي سرًا أقسمت على حمايته بهذه السهوله .

ابتسم الدكتور هاشم وبدت على شفتيه لمحة من الحزن قبل أن يهز رأسه علامة على الموافقة .. ودعته فقام بإيصالي حتى باب الفيلا وقبل أن أنصرف قال لي بصوته الهادئ

اسمع مني يا بني .. أحيانًا يكون أفضل طريقة لحماية السر هي جعله ظاهرًا للعيان .

ثم ابتسم لي مرة اخرى وهو يغلق الباب .. خرجت شاردًا محاول فهم ما يريد الدكتور هاشم أن يقول .

هل يعقل أن ما قاله الليله لم يكن إلا الحقيقة ؟ .

أم انه أراد العبث معي لأخر مرة هذه الليلة ؟ .

ولازلت حتى الأن أتساءل

هل كان الدكتور هاشم يقدم لنا الحقيقة التي تناسيناها جميعا ؟ أم أنه أكثر من رأيت قدرة على الإقناع ؟.